

والموازين هناك هي موازين الإيمان والعمل الصالح، موازين العلم والمعرفة والنية الصالحة وعلى حد ما يروى عن صادق آل محمد عليه السلام الموازين هي موازين الإنسانية.

وأما العوان بين أولاء وهؤلاء الذين ثقلت بعض موازينهم وخفت الأخرى، فلا هم مفلحون تماماً، ولا هم خالدون في النار تماماً، وإنما لهم عوان الجزاء ثواباً وعقاباً كعوان الموازين ولا يظلمون فتيلاً.

وكضابطة شاملة ما يروى أن «الحسنات ثقل الميزان والسيئات خفة الميزان» فلا وزن إذاً للسيئات ﴿فَلَا نُفِئُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا﴾^(١) وإنما هو للحسنات.

فيا «أيها الناس إن العربية ليست بأب والد وإنما هو لسان ناطق فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم ولد آدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم والدليل على ذلك قول الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١١٢) فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١١٣) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(٢).

إن نسب الرسول عليه السلام مما يثقل الميزان شريطة الحسنات، وإنها الأصل الأصيل والله لا ينفعك غداً إلا تقديمة تقدمها من عمل صالح^(٣) إلا

(١) سورة الكهف، الآية: ١٥.

(٢) المصدر عن تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: لا يتقدم يوم القيامة أحد إلا بالأعمال والدليل على ذلك قول رسول الله عليه السلام.

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٦٣ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين عليه السلام طاوس الفقيه: رأيته يطوف من العشاء إلى السحر ويتعبد فلما لم ير أحداً رمق إلى السماء بطرفه وقال: إلهي غارت نجوم سماواتك، وهجعت عيون أنامك وأبوابك مفتحة للسائلين جئتك لتغفر لي وترحمني وتريني وجه محمد عليه السلام في عرصات القيامة ثم بكى وقال: وعزتك، وجلالك ما أردت =

أن الصالح من نسيب الرسول ﷺ أصلح كما الطالح منه اطلح كما تدل على ذلك آيات من الأحزاب (١) .

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنزِّلًا عَلَيْكُمْ فَاكْتُمُوهَا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ :

هؤلاء هم أئمة الكفر وقادة الضلالة (٢) كما أن من ثقلت موازينه هم أئمة الإيمان وقادة الهداية .

= بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك، ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك متعرض، ولكن سؤلت لي نفسي وأعانني على ذلك سترك المرخى به علي فأنا الآن من عذابك من يستنقذني، وبجبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني فواسواتاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا، أم مع المخفين أجوز، أم مع المثقلين أخط؟ وبلي كلما طال عمري كثرت خطاياي ولم أتب، أما أن لي أن استحي من ربي ثم بكى وأنشأ يقول:

أتحرقني بالنار يا غاية المنى فأين رجائي ثم أين محبتي
أتيت بأعمال قباح رديئة وما في الورى خلق جنى كجنائتي
ثم بكى وقال: سبحانك تعصى كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعص، تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن لك الحاجة إليهم، وأنت يا سيدي الغني عنهم، ثم خر إلى الأرض ساجداً قال: فدنوت منه وثلت رأسه فوضعت على ركبتي وبكيت حتى جرت دموعي على خده فاستوى جالساً وقال: من الذي أشغلني عن ذكر ربي؟ فقلت له: أنا طاوس يا بن رسول الله ﷺ ما هذا الجزع والفرع؟ ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا ونحن عاصون جافون؟ أبوك الحسين بن علي ﷺ وأمك فاطمة الزهراء وجدك رسول الله ﷺ قال: فالتفت إلي وقال: هيهات هيهات يا طاوس دع عني حديث أبي وأمي وجدي خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبداً حبشياً وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً أما سمعت قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والله . . .

- (١) وهي: يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن . . .
(٢) نور الثقلين ٣: ٥٦٥ في الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين ﷺ حديث طويل يذكر فيه أحوال القيامة وفيه: ومنهم أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعبا بهم لأنهم لم تعبوا بأمره ونهيه فهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحوث .

واللفح هو شديد النفخ السامّ، والكُلوح هو تقلُّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو، فقد يصيب وجوههم لهب النار بفتحها لحد تتقلُّص شفاههم وتبدو أسنانهم كالرؤوس المقشرة المشوية، «مفتوح الفم، متربدي الوجوه»^(١) تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعصابهم^(٢) فيقال لهم قولة قارعة ضارعة ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنذِرُ عَلَيَّكُمْ﴾ تلاوة البيان من كتاب الشرعة التدوين، وتلاوة العيان من كتاب الآفاق التكوين ﴿فَكُنْتُمْ﴾ على طول خطوطها وبكل خيوطها ﴿بِهَا تُكذَّبُونَ﴾ في قال وحال وفعال على أية حال .

وهنا الاعتراف الصارخ القارح، اعتذاراً بغلب الشقوة علّه يخفف عن وطأة العذاب، وكما كان الاعتراف بالذنب من شروط استجابة الدعوة يوم الدنيا :

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾^(٣) :

ما كنا غاليين إذ كذبنا بآياتك بل كنا مغلوبين تحت وطأة الشقوة والضلالة، ولكن من أين جاءت الشقوة وحلت الضلالة إلا من أنفسكم تخيراً لها وتسييراً فهم «بأعمالهم شقوا»^(٣) فقد كان غلباً مختاراً لا يعذرکم فيما كذبتهم، ولكنهم على زعمهم القاحل يتطلبون الرجعة إلى حياة التكليف :

(١) نور الثقلين، ٣: ٥٦٦ في تفسير القمي في الآية قال: تلهب عليهم فتحرقهم «وهم فيها طالحون» أي . .

(٢) الدر المنثور ٥: ١٦ - أخرج ابن مردويه والضياء في صفة النار عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ في قوله: تلفح وجوههم النار قال: . . وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلفتهم بعنق فلفحتهم لفحة فلم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب، وفيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في الآية قال: تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة .

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٦٦ في كتاب التوحيد بإسناده إلى علي بن أبي حمزة عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ في الآية قال: بأعمالهم شقوا وفيه عن كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين ﷺ حديث طويل يذكر فيه أحوال المحشر يقول فيه وقد ذكر النبي ﷺ : =

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١٧) :

وعلى ذلك آخر المطاف في سؤالهم المستجدي لعله يجدي وكما يروى عن النبي ﷺ . . . فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (١٧) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿ (١٧) ﴾ فيجيبهم: ﴿ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . . . ﴾ (١) (٢) وقد تعني ﴿ عُدْنَا ﴾ عوداً إلى التكذيب وعوداً إلى حياة الحساب بنفس الحالة، وعوداً إلى الجحيم بنفس التصميم.

وي كأنهم لم يكونوا من قبل ظالمين في غلب الشقوة والضلالة، وإن الله أدخلهم النار دون ظلم منهم! ولذلك الهراء القاحل، والاعتذار الجاهل يستحقون خطاب الكلاب:

﴿ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (١٨) :

﴿ أَخْسُوا فِيهَا ﴾ خساً الكلاب - وهم أضل سبيلاً من الكلاب - ﴿ وَلَا ﴾

= ويشهد على منافقي قومه وأمتة وكفارهم بإلحادهم وعنادهم ونقضهم عهوده وتغييرهم سنته واعتدائهم على أهل بيته وانقلابهم على أعقابهم وارتدادهم على أدمهم واحتدائهم في ذلك سنة من تقدمهم من الأمم الظالمة الخائنة لأنبيائها فيقولون بأجمعهم: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٦ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيعاثوا بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، فيستغيثون بالطعام فيعاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فإذا دنا من وجوههم شوت وجوههم وإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فيقولون: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى قال: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فيقولون: ادعوا مالكا فيدعون مالكا فيقولون: يا مالكا ليقض علينا ربك فيجيبهم انكم ماكنون فيقولون ادعوا ربكم . . .

تُكَلِّمُونَ ﴿٩١﴾ فذلك إذا آخر المجال لكلامهم المستغيث فيظنون خرساً لا يكلمون، اللهم إلا مع بعضهم البعض متلاومين .

ولأن الخساً هو زجر الكلب مستهيناً به، ولا يُخساً إلا الكلب الهراش الضاري، كذلك هم يخسؤون بكذبهم فيها وما كانوا يكذبون^(١) .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٩٣﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿٩٤﴾﴾ :

هم كانوا يستغفرونني بسناد الإيمان يوماً فيه مناص، وأنتم تستغفرونني بسناد الشقوة والضلالة زعم العاذرة فيها ولات حين مناص إذ قد مضى يوم خلاص .

وأنتم اتخذتموهم سخرياً ساخرين الله ورسوله وأهل الإيمان ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي ﴿٩٣﴾ وهنا ينسب الإنساء إلى المؤمنين إذ لولاهم لما كانت سخرية ولا نسيان ذكر، فهم من أسباب نسيان الذكر دون تقصير، وهم بشقوتهم وضلالهم سخروا منهم عامدين بكل تقصير، فنسوا بذلك ذكر الله، وأصبحت قلوبهم قاحلة عن ذكره إلى مليء من ذكر الشيطان، وذلك كمثله قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾^(٢) .

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على ما كنتم منهم تسخرون وعليهم تضحكون، دون تزعزع من إيمانهم ولا تل kec فيما يعملون، ﴿جَزَيْتُهُمْ... أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ ففوزهم اليوم ككل هو جزاؤهم بما صبروا .

(١) الدر المنثور ٥ : ١٧ - أخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن حذيفة أن النبي ﷺ قال : إن الله إذا قال لأهل النار : ﴿أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] عادت وجوههم قطعة لحم ليس فيها أفواه ولا مناخير تردد النفس في أجوافهم .

(٢) سورة البقرة، الآية : ١٠ .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (١١٣):

وترى كيف تتناسب ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ وذلك السؤال حيث يتطلب كلاماً في الجواب؟ علّه يعني لا تكلمون دون إذن أو أمر: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (١).

هذا، ولأن الكلام الممنوع هو المرجو منه الفائدة، وأما الكلام العذاب فهو عذاب فوق العذاب.

وهذا السؤال تقريع لهم وتبكيث تهيئة لإجرامهم القاصد على فسحة من زمن التكليف: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ورغم أن السؤال يؤكد لبث سنين، هم يحولونها إلى يوم أو بعض يوم:

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ﴾ (١١٣):

وعلمهم هكذا يجننون في الجواب لعظيم الهول المرهف الذي أنساهم عدد مكثهم، فيحولون الجواب إلى العادين الذين هم في ذكر من عدد السنين إلى يوم الدين.

﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١١٤):

وطبعاً ﴿قَلِيلًا﴾ بجنب الآخرة لا لأداء التكليف، وهم طول هذا القليل في غفلة الشهوة وشهوة الغفلة دون أن يقدموا لأنفسهم.

و«في الأرض» هنا كما في البعض مما سواها تقصد الحياة الأرضية دنيوية وبرزخية، وكما أجابهم الله في أخرى ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ (٢) وحقاً إن زمن اللبثين قليل بجنب الآخرة لأمر عدة ذكرناها في طه وسواها.

(١) سورة هود، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٥٦.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥):

فحيث لا بعث ولا رجوع إلى الله للحساب والجزاء فالخلق - إذاً -
عَبَثَ عبث الظلم، فإن خلق الخلق دون فصل القضاء ظلم، وعبث اللاغية
الصالحة - حيث الحياة الدنيا بنفسها - بهذه الظلامات والحرمانات -
ليست غاية صالحة، والرجوع إلى الله يجعل الخلق صالحاً ذا غاية صالحة،
فالخلق دون بعث عَبَثَ، سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويا لها من آية تقريع على الغافلين المتجاهلين وقد قال رسول
الهدى ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال» (١).

ويقول جعفر بن محمد الصادق في جواب من سأله:

لِمَ خلق الله الخلق؟ إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم
يتركهم سدىً، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك
رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم
لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم» (٢).

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (١١٦):

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ - ﴿الْمَلِكُ﴾ - ﴿الْحَقُّ﴾ عن العبث بالخلق، وعن أن
يكون له شريك في الملك أو ولي من الذل، أو أن يترك خلقه سدى دون هدى

(١) الدر المنثور ٥: ١٧ - أخرج جماعة عن ابن مسعود أنه قرأ في أذن مصاب، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبريء فقال رسول الله ﷺ فإذا قرأت في أذنه فأخبره
فقال . . .

(٢) وفيه أخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم في المعرفة بسند حسن من طريق محمد بن إبراهيم
ابن الحارث التيمي عن أبيه قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا
وأصبحنا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فقرأناها فغنمنا وسلمنا .

(٣) نور الثقلين ٣: ٥٦٦ في علل الشرائع بإسناده إلى جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه قال:
سألت الصادق جعفر بن محمد ﷺ فقلت له:

بالوحي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ عرش الربوبية والتدبير، في التكوين والتشريع ﴿الْكَافِرِينَ﴾ عرش لا تضيق فيه، بل هو كريم واسع الرحمة.

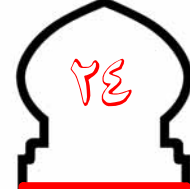
﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٧) :

﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ قد تكون جزاء الشرط نكراناً لأي برهان على إله آخر، أم وصفاً لـ ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ مماشاة، أن لو كان هنالك برهان له لكان مقبولاً، أم قيداً توضيحياً حيث الإله الآخر لا برهان له، فهذه الدعوة والدعوى الباطلة دون أي برهان ولا إمكانه هو من أضل الضلال وأظلم الظلم ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ يوم القيامة الكبرى ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لا برهاناً ولا واقعاً متخلفاً عن برهان، لا في الأولى ولا الأخرى، مهما أرددوا وأبرقوا في هذه الأدنى، إذاً فكل دعوى دون أي برهان فيه حساب عند الله دون أي إفلاح لصاحبها، فذلك محرم شرعياً كما هو محرم عقلياً وفطرياً، حيث الإنسان العاقل والمشرع هو ابن البرهان جملة وتفصيلاً، وفيما يجب عليه التقليد لعجز عن الاجتهاد، فلا يجوز التقليد - كما الاجتهاد - دون أي برهان.

ويا لها من سورة بدايتها تبشير للمؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ومن نهايتها إنذار الكافرين ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ثم ختامها الاستغفار والاسترحام للمؤمنين :

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ :

﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لي عما يهاجمني من دوائر السوء التي تعرقل دون رسالتي ﴿وَارْحَمْ﴾ ني في هذه السبيل الشائكة المليئة بالأشلاء والدماء.
ثم ﴿اغْفِرْ﴾ للمؤمنين عما تعرضهم من خطايا أو تعترضهم ﴿وَارْحَمْ﴾ المؤمنين ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فالغفر من مصاديق الرحمة الرحيمية، فخير الراحمين هو خير الغافرين.



سُورَةُ النُّورِ

